المصادر والمراجع

١) القرآن الكريم.

٢) أحمد عبدالله السومحي، على أحمد باكثير حياته، شعره الوطني والإسلامي، الطبعة الأولى، جدّة، نادي الأدبي الثقافي، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

٣) عبدالرحمن صالح العشماوي، الاتجاه الإسلامي في آثار باكثير القصصية والمسرحية، الرياض، المهرجان الوطني للتراث والثقافة، ١٤٠٩هـ .

٤) عبدالعزيز المقالح، على أحمد باكثير الرواية التاريخية (ضمن كتاب وثائق مهرجان باكثير)، الطبعة الأولى، بيروت، دار الحداثة، ١٩٨٨م.

٥) علي أحمد باكثير، الثائر الأحمر، الطبعة الثانية، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٦) علي أحمد باكثير، الفارس الجميل، القاهرة، مكتبة مصر، بدون تاريخ.

٧) علي أحمد باكثير، سلامة القس، القاهرة، مكتبة مصر، بدون تاريخ.

٨) علي أحمد باكثير، سيرة شجاع، القاهرة، مكتبة مصر، بدون تاريخ.

٩) علي أحمد باكثير، ليلة النهر، القاهرة، مكتبة مصر، بدون تاريخ.

١٠) علي أحمد باكثير، وا إسلاماه، القاهرة، مكتبة مصر، بدون تاريخ.

١١) عمر عبدالرحمن الساريسي، مقالات في الأدب الإسلامي، عمان، دار الفرقان، ١٩٩٦م.

١٢) محمد أبو بكر حميد، على أحمد باكثير في مرآة عصره، القاهرة، مكتبة مصر، بدون تاريخ.

١٣) محمد شفيع السيد، اتجاهات الرواية العربية في مصر، الطبعة الثانية، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٣م.

١٤) نجيب الكيلاني، نحن والإسلام، الطبعة الثانية، بيروت، الرسالة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

موقع الأديب
علي أحمد باكثير
www.bakatheer.com

أثر المرجعية في روايات باكثير التاريخية

رواية «وا إسلاماه» نموذجا

د. الحسين زروق -المغرب

أولا: في المقدمات

مدار العنوان الذي اخترته لهذا البحث على ثلاثة عناصر: المرجعية، والرواية التاريخية، ورواية «وا إسلاماه».

١- المرجعية

يدل أصل المرجعية في اللغة على «الرد والتكرار»[١]، ومن دلالات استعماله التناول والغيث والماء والنفع والخطو والمضاء وما يُرجَع إليه[٢]، وهي معان تجعل أمر المرجعية خصبا وذا شأن، وتفيد أن قيمة الرجوع تحددها قيمة المرجوع إليه، وأنه إنما كان رجوع لما كانت هناك حاجة إليه، كحاجتنا إلى الغيث والماء والنفع وتناول الأشياء.

والمرجعية لفظ دال على عودة بالشيء إلى أصله، ورد إليه، وبحث فيه عن عناصر القوة والفعالية، وهي في سياقنا تدل على وجود مرجع يُرجع إليه لضبط المسافة الفاصلة بين الكتابة والتصور، ومن ثم تشكل الخلفيةَ النظريةَ والإطارَ المعرفي الذي يتحرك ضمنه الكاتب ليمنح كتابته انسجاما مع تصوره للكون والحياة والناس، وهي بذلك حاسمة في اختيار الزاوية التي يُتناول منها الموضوع، ثم المواقف المتخذة.

كما أن المرجعية في السياق العربي الإسلامي لا يمكن أن تكون إلا لله وحده، أي: لا يمكن أن تكون إلا للوحي، وقد منحها ارتباطها به قدرة استيعابية كبرى بما تعنيه من استيعاب للتعدديات، بخلاف ما إذا ارتبطت بغيره، فهي تضيق بناء على ضيق أفق صاحبها، و«إذا كانت المرجعية هي الوجهة التي لا ينبغي الاختلاف فيها، وهي الوحي، باعتباره نقطة ارتكاز ثابتة، فإن الإشكال يكمن حينها في "كيف نرجع؟"».

٢- الرواية التاريخية

الرواية التاريخية «سرد قصصي يرتكز على وقائع تاريخية، تنسج حولها كتابات تحديثية، ذات بعد إيهامي معرفي...وتنحو...غالبا إلى إقامة وظيفة تعليمية وتربوية»[٣]، ومدار التعريف السابق على ثلاثة أمور: هوية(سرد قصصي)، وصفة مميزة(الوقائع التاريخية)، ثم وظيفة(تربوية تعليمية). وبذلك يكفينا من التعريف أن الرواية التاريخة هي الرواية التي تتخذ من الوقائع التاريخية موضوعا لها، وأنها تهدف من وراء ذلك إلى تحقيق مجموعة من الأهداف.

٣- رواية «وا إسلاماه»

هذه الرواية هي «أشهر روايات باكثير على الإطلاق، كتبها عام ١٩٤٤م، وفازت بجائزة وزارة المعارف المصرية عام ١٩٤٥م، قُررت على طلاب المدارس في مصر وعدد من الدول العربية، وتحولت إلى فيلم سينمائي»[٤].

وهي تصوغ إبداعيا أحداث الفترة(٦١٧ - ٦٥٨ هـ) في المنطقة الممتدة من خراسان إلى مصر، وذلك من زاوية شخصيتين هما محمود/قطز وبنت خاله جهاد/جلنار، وتنتقل بنا الرواية من طفولتهما لما كانا في كنف جلال الدين بن خوارزم شاه إلى حدود معركة عين جالوت.

ثانيا: خصائص مرجعية «وا إسلاماه»

لمرجعية «وا إسلاماه» واجهات عدة، في مقدمتها سلطة النص، وصورة العالم، وواقع المرأة، وميزان الأفعال، وسنفرد كل عنصر منها بالدراسة.

١- سلطة النص

ميزة حضارتنا الإسلامية أنها«حضارة النص»[٥]، والنص:«يدل على رفع وارتفاع وانتهاء في الشيء»[٦]، فأمتنا ارتفعت بالنص، وانتهت إلى ما انتهت إليه من سمو الحضارة، وإنسانيتها به، وغني عن البيان أن نصوص الوحي في مقدمتها، فهي نص النصوص.

وما دمنا بين يدي رواية «وا إسلاماه» لكاتبنا الكبير علي أحمد باكثير، وهي رواية تاريخية كما سبق، فإن من حقنا أن نتساءل عن حجم حضور النص في هذه الرواية، ومدى وعي الكاتب بأهمية هذا الحضور.

بلغ مجموع نصوص الوحي الواردة في الرواية باللفظ والمعنى تسعة

وعشرين نصا[٧]، وهي تمتد من الصفحات الأولى إلى الأخيرة، وترد نصوص الجهاد في مقدمتها بـ(١٥ نصا)[٨]، تليها النصوص الاجتماعية بـ(٧نصوص)[٩]، مما يعني أن نصف نصوص الوحي في الرواية تقريبا خاص بالجهاد، وربعها تقريبا خاص بالقضايا الاجتماعية، وهذا يفيد أن نصوص الوحي عامل حاسم في الأحداث التي ترصدها الرواية، مادامت تعنى في المقام الأول بجهاد التتار والصليبيين. وما ينبغي أن لا يفوتنا أن ارتباط النصوص بالجهاد في الرواية يمتد من بدايتها[١٠] إلى نهاية معركة عين جالوت[١١]، ثم تتوقف النصوص بعد ذلك؛ ولا نقف على أي نص خلال الفصلين الخامس عشر والسادس عشر؛ بل سنجد في ثانيهما قتلا لقطز، وتولية لبيبرس، وكأننا أمام خطاب ضمني يفيد أن مثل هذه الأحداث مخالفة لسياق اشتغال النصوص، ولمسار مرحلة امتدت تصاعديا؛ لأننا نجد أنفسنا أمام مجاهد متميز كان على يديه وضع حد لامتداد التتار غربا في العالم الإسلامي يُقتَل بسبب حسابات وطموحات شخصية تسيء إلى تاريخ الأمة وإنجازاتها، وإلا كيف نفهم أن الأمة التي انتصرت على التتار في عين جالوت وما بعدها هي نفسها التي سيبدأ أفرادها بتصفية حساباتهم الشخصية بسيوف لم تجف بعد من دماء أعدائهم؟!

وتأمُّل نصوص الجهاد الواردة في الرواية يجعلنا نلاحظ أن باكثير يضعنا أمام كتاب مفتوح نقرأ فيه كيف فهمت أمتنا تلك النصوص، وتجارب ممارستها ميدانيا، ويبسط أمامنا تلك التجارب بانتصاراتها وانتكاساتها، وينتقل بنا في ذلك من أعالي آسيا إلى مصر، مثلما سينتقل ذلك الصبي من محمود إلى قطز، مشكلا خزان ذاكرة الجهاد الإسلامي، حتى إذا ما استوى له الحكم استثمر ذلك الرصيد من التجارب والإيمان وعقيدة النصر في خوض معركة حاسمة ستخلص شرق الأمة وغربها من خطر زاحف.

ومما نقرأه في ذلك الكتاب المفتوح كيف أن جلال الدين(-٦٢٨هـ) احتاج من يشرح له صدره للجهاد مستعينا بآيات من سورة الشرح، فإذا الانهزام النفسي الناتج عن هزائم خوارزم شاه(-٦١٧هـ) يتحول إلى اتجاه نحو الله تعالى لاستمداد العون منه، مع يقين بأن مع العسر يسرا[١٢]، وقد أثمر تصحيح هذا الفهم انتصارات على التتار قادت جلال الدين إلى استعادة ما فقدته دولة أبيه حتى وصل إلى حدود الطالقان حيث القاعدة العسكرية لجنكيز خان[١٣].

ومما نقرأه أن الجهاد يتطلب أولا إيمانا عميقا بالله تعالى، وإحساسا بقوة الحق، وبتعبير لغتنا المعاصرة«عدالة القضية»، ومن ثم فرفع المعنويات وصناعة الإرادات مقدمان على امتلاك الأسلحة والمعدات. وتجربة قطز تبين لنا أن المهزومين نفسيا لا يمكنهم الانتصار، ومن ثم رأيناه أول ما فعل أن حول هذه الهزيمة النفسية وعقيدة الخوف من العدو إلى يقين في الله تعالى، وكانت الوسيلة في ذلك نصوص الوحي، مما يعني أن القتال الذي لا يقوم على تشبع بالوحي، أو يفصل بين نصوص الوحي والحرب لا يمكن أن يكون جهادا، وتعلمنا الرواية كيف أن التعبئة للجهاد بدأت بالقرآن:«فقد أوعز(أي قطز) للشيخ عز الدين بن عبد السلام فأنشأ ديوانا كبيرا للدعوة إلى الجهاد في سبيل الله، يضم إليه من يختارهم من خطباء الجوامع فيلقنهم ما ينبغي لهم أن يخطبوا به على المنابر ليدعوهم إلى الجهاد ويبينوا لهم فضائله...وكان الشيخ ابن عبد السلام لا يجيز أحدا من هؤلاء الخطباء والوعاظ بالانطلاق لعملهم حتى يحفظ سورتي الأنفال والتوبة من القرآن عن ظهر قلب. فكان من جراء ذلك أن صارت المنابر والجوامع والأندية ومجالس القرى تعج بآيات القتال من القرآن، حتى كاد الرجال والأطفال يستظهرونها حفظا»[١٤] ، فالأمر يتعلق بتشكيل القابلية للجهاد أولا، وجعله موضوع الساعة بتعبيرنا المعاصر؛ لأن ذلك الوسيلة المثلى لتغيير ما بالأنفس، وتحويل الهزيمة النفسية إلى تطلع نحو الانتصار أو الاستشهاد.

وسورة الأنفال كما لا يخفى ترتبط بغزوة بدر، ومن إيحاءات توظيف هذه السورة أن كون العدو له تاريخ وتجربة...غير مانع من هزمه، وأن القلة العددية ليست سببا للهزيمة، وأن الانتصار لا يرتبط بالعدد والعدة فقط؛ بل يرتبط قبل ذلك بالإيمان بالله، وتصحيح العلاقة به، واليقين في نصره، ثم إعداد الأسباب حسب المستطاع ؛ إذ «تتكرر الدعوة في السورة إلى الثبات فيها (أي المعركة)، والمضي معها، والاستعداد لها، والاطمئنان إلى تولي الله فيها، والحذر من المعوقات عنها من فتنة الأموال الأولاد، والاستمساك بآدابها، وعدم الخروج لها بطرا ورئاء الناس...» [١٥].

وسورة التوبة وإن كانت مختلفة عن الأنفال إلا أنها مكملة لها من زاوية أخرى، «السورة بجملتها نزلت في العام التاسع للهجرة..ولكنها لم تنزل دفعة واحدة...إلا أنه يمكن الترجيح بأنها نزلت في ثلاث مراحل..المرحلة الأولى منها كانت قبل غزوة تبوك...والمرحلة الثانية كانت في أثناء الاستعداد لهذه

الغزوة ثم في ثناياها. والمرحلة الثالثة كانت بعد العودة منها»[١٦]، وهي بالمراحل الثلاث تبصّر بالموقف من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين والمتثاقلين، وكأن توظيف هذه السورة في الإعداد لجهاد التتار كان دفعا للناس أن يقاتلوا على بصيرة؛ لأن جهادهم سيصطدم بمرجفين، وانتهازيين، وخونة،...فكان لا بد من الإعداد النفسي لذلك كله.

وتعلمنا الرواية حجم الجهد الذي بذله قطز –ومن في صفه– في إخراج الناس إخراجا آخر:«قضى الملك المظفر عشرة أشهر من ملكه لم يعرف للراحة طعما، ولم ينم إلا غرارا؛ بل ملأ ساعاتها كلها بجهود تنوء بها العصبة أولو القوة. فقد كان عليه أن يوطد أركان عرشه بين عواصف الفتن وزعازع المؤامرات، ويقضي على عناصر الفوضى والاضطراب، ويضرب على أيدي المفسدين والدساسين، ويقبض بيد قاهرة على أزمّة السياسة الجامحة، ويعالج الأمراء المماليك، ويستعمل مع بعضهم اللين ومع آخرين الشدة. وكان عليه أن يقوي الجيش، ويضاعف عدده وأسلحته وعدده، ويجمع له المؤن والذخائر والأقوات، ويحصل لذلك كله الأموال الكافية، وكان عليه أن يسكن القلوب الوجلة من قدوم التتار، وينفخ فيها روح العزم على مقاومتهم على كثرة المخذلين من الأمراء المعوقين عن قتالهم، الداعين إلى مسالمتهم والخضوع لهم،...فقد خلق الجيش المصري خلقا جديدا، ...فإذا هو يتوقد حماسة للقتال، ويحن شوقا للجهاد في سبيل الله» [١٧]، وهو في ذلك كله يجعل النص مفتاحا لتشكيل الشخصية المسلمة المجاهدة، ولتصحيح اعوجاجها أو فهمها...

وعندما اختار الأمراء غير ذات الشوكة بأن يعطوا التتار الجزية أوقفهم قطز على آية الجزية﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾[١٨]، مذكرا إياهم أن الجزية والصغار من العدو لصالح المسلمين، وهم يريدون الصغار للمسلمين، وأنهم لا يريدون القتال، ولو كانوا يريدونه لأعدوا له العدة، وقد أثمرت صرامته في ذلك وتفاعله مع النصوص، وتوظيفها أن تبعه الكثير من الأمراء وهم كارهون، وخاض بهم معركة عين جالوت، وحقق فيها المسلمون نصرا باهرا.

وتقدم لنا الرواية صورة جيدة عن الجيش المسلم في لحظات نشوة النصر؛ إذ لم يُنسهم ذلك أن الناصر الله، فقد خر الملك المظفر ساجدا لربه، وخطبهم مذكرا بقوله تعالى:﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[١٩]، وقوله:﴿كَمْ

مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [٢٠]، وتذكر زوجته التي استشهدت في المعركة وشهداء المسلمين «فبكى وعلا نحيبه، فبكى المسلمون جميعا، وتعالت أصواتهم بالنحيب...ثم تلا السلطان قوله تعالى:﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) [٢١].

تقودنا الجولة السابقة مع واقع نصوص الوحي في رواية «وا إسلاماه» إلى أن باكثير كان واعيا بأهمية القرآن والسنة في أحداث المرحلة التي عنيت بها الرواية، وقد بذل جهدا جيدا في نقل صورة لهذا التفاعل تارة على لسانه هو، وأخرى على لسان بعض شخصيات روايته وهو الغالب[٢٢]، وفي ذلك كله ظل النص فاعلا أساسيا في أحداث الرواية، كما في أحداث المرحلة، وإذا كان موضوع الرواية الأول هو مواجهة الصليبيين والتتار فإن رؤية باكثير لم تغفل جوهر الصراع القائم بين الحق والباطل، ومن ثم ربطت بين الوحي والواقع باعتبار الأول عاملا حاسما في تغيير الثاني.

يبقى أن أشير إلى أن قراءتي للروايات التاريخية المختلفة المرجعيات جعلتني باستمرار أتساءل عن سر التفاوت بينها جفافا وطراوة، ولكن قراءة «وا إسلاماه» منحتني الجواب الكافي المتمثل في الوعي بأهمية النص في القراءة الإبداعية للتاريخ، واستحضارها في إعادة كتابته، وقد كان حضور النص بالمقابل سبب تلك الطراوة التي أحسستها، ولا أجد تعبيرا عنها أفضل من عبارة نقادنا القدامى «كثرة الماء»، وإذا فكثرة تلك النصوص، وطبيعة حضورها في «وا إسلاماه»، هما السر في كثرة ماء الرواية، وكثرة مائها هي التي منحتها خصبا تفتقر إليه الكثير من الروايات التي تقرأ تاريخنا إبداعيا مجرِّدة إياه من مائه الذي منحه الخصب، ومنحه الحياة.

٢- صورة العالم

لما كان العلماء موقعين عن رب العالمين بتعبير ابن قيم الجوزية، وكان هذا التوقيع مقتضيا لمعرفة عميقة بنصوص الوحي وما يرتبط بها من أحكام، احتجنا أن نعرف صورتهم في الرواية لنعرف وضع تلك النصوص من زاوية حامليها والمشتغلين بها.

تحفظ رواية «وا إسلاماه» للعلماء مكانتهم المتميزة، وذلك من خلال

تسجيل حضورهم في المناسبات الكبرى، كحضورهم مع جلال الدين لما استعاد مملكة أبيه وزار قبره للترحم عليه[٢٣]، وحضورهم مجلس الشورى الذي عقده الملك المظفر قطز لاتخاذ قرار بخصوص كيفية توفير المال اللازم لتجهيز الجيش والاستعداد لمواجهة التتار[٢٤].

وقد ظلت صورة العالِم ومواقفه إيجابية في الرواية كلها إلا في ثلاثة مواضع تعيب مجموعة من العلماء؛ لأنهم عطلوا علمهم، ولم يؤدوا دورهم في الشهادة على عصرهم، وذلك عند:

أ- الإشارة إلى «فقهاء السوء» الذين لجأ إليهم موسى ولد الشيخ ابن غانم المقدسي ليبطل وصية أبيه القاضية بعتق قطز وجلنار وتوريثهما،«فأبطلوا له وصية أبيه بصدد عتقهما والأملاك التي أوصى بها لهما»[٢٥].

ب- المقارنةِ بين الشيخ ابن عبد السلام ومجموعة من علماء عصره الذين «لا هم لهم إلا جمع الحطام، وتضليل العوام، ومداهنة الحكام، ومسالمة الأيام»[٢٦].

ج- تنديدِ الشيخ ابن عبد السلام في خطبة له «بعلماء السوء الذين يُفتون الناس بالباطل، ويُحرفون الكلم عن مواضعه، ويشترون بآيات الله ثمنا قليلا، ويجبنون عن الجهر بكلمة الحق، ويخافون الملوك، ولا يخافون ملك الملوك»[٢٧].

ولم يُذكَر في الرواية كلها بالاسم إلا عالِم واحد هو العز بن عبد السلام، مع أن علماء آخرين كبارا عاصروه، وكانت لهم مواقف مشرّفة، ومنهم ابن الحاجب المالكي(- ٦٤٦هـ) الذي كان له موقف مشابه لموقف ابن عبد السلام من موالاة الصالح إسماعيل للصليبيين وإعطائهم صيدا وغيرها، فغضب منهما السلطان، واضطرا إلى مغادرة دمشق[٢٨]، فذهب ابن عبد السلام إلى مصر، وابن الحاجب إلى الكرك[٢٩]، و«حافظ الديار المصرية وزاهدها» الشيخ عبد العظيم المنذري(-٦٥٦هـ) الذي امتنع عن الفتيا لما قدم ابن عبد السلام إلى مصر، وقال:« كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه»[٣٠]، والراجح أن سبب هذا الإغفال راجع إلى مكانة ابن عبد السلام التي فاقت مكانة غيره، حتى عده تلميذه ابن دقيق العيد«سلطان العلماء»[٣١]، إضافة إلى أن مجموعة من العلماء لم تتوفر فيهم شروط فنية كانت محل عناية السارد، وفي مقدمتها أن تكون العلاقة ثابتة ومباشرة بقطز، وأن

تنتقل هذه العلاقة معه من دمشق لما كان في «رِق ابن الزّعيم» إلى مصر، وهذا لم يتوفر إلا لابن عبد السلام، فإذا أضفنا إلى ذلك مواقف هذا العالِم -كما سنرى بعد قليل- تبين لنا لِمَ حظي وحده بالذكر والعناية دون سواه.

فالشيخ ابن عبد السلام(٥٧٧-٦٦٠هـ) حاضرٌ في نصف الرواية تقريبا، وذلك ابتداء من آخر الفصل السابع، كما أنه محورُ الفصلين الثامن والتاسع، وقد خصصا لوصف حركته الرافضة لسلطان دمشق في موالاته للنصارى، وتنازله لهم عن بلاد المسلمين.

والرواية تصفه وصفا جليلا يدل على علمه وورعه ومكانته، ففيها: «وقد وجد (أي ابن الزعيم سيد قطز) في الشيخ ابن عبد السلام مثلا صالحا للعالم العامل بعلمه، الناصح لدينه ووطنه، الذي يرى حقا أن العلماء ورثة الأنبياء في هداية الناس إلى الخير، ودفعهم عن سبيل الشر، الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر. لا يخاف في الله لومة لائم. لا يتجر بدينه ولا يريد الدنيا بعمله، ولا يساوم في مصالح أمته ووطنه، ولا يشتري بآيات الله ثمنا قليلا من حطام الدنيا ومتاع العاجلة»[٣٢]. وكأن السارد وهو يتحدث للمرة الثانية في الرواية عن ابن عبد السلام كان يمهد لهذه الشخصية التي سيكون لها حضور قوي بعدُ.

كما أن الرواية ترصد مجموعة من مواقفه الشجاعة والمتميزة، وإن كانت أغفلت مواقف رائدة أخرى لم يُسبق إليها، ولا عُرِفَ لها نظيرٌ في التاريخ -لا قبله ولا بعده- كبيعه الأمراء، وقصة اعتزاله -في سياق ذلك- ومغادرته العجيبة لمصر، وخروج الناس لخروجه[٣٣].

وأول المواقف التي سجلتها الرواية للشيخ ابن عبد السلام معارضته لسلطان دمشق الملك الصالح إسماعيل الذي تحالف مع الصليبيين ضد سلطان مصر الملك الصالح أيوب، وأعطاهم مقابل ذلك «قلعتي صفد والشقيف وبلادهما، وصيدا وطبرية وأعمالها، وسائر بلاد الساحل، وما اكتفى بذلك حتى أذن لهؤلاء الأعداء في دخول دمشق، وشراء الأسلحة وآلات الحرب من أهلها»[٣٤]، واتخذ هذا الموقف أربع واجهات:

أ- كتب رسالة إلى سلطان مصر «يحثه فيها على التعجيل بالجهاد، ويتوعده فيها بغضب الله ونقمته وعذابه إذا تهاون في المسير حتى يتم ما أراده أعداء الإسلام به. مؤكدا له أن تبعته ستكون على رقبته إذا قصر فيما أوجبه الله

عليه، وأنذره بضياع ملكه وخسارة دنياه وآخرته»[٣٥].

ب- ألقى خطبة شنّع فيها فعْل السلطان، وذكر موقف الإسلام من موالاة العدو، كما ذكر فيها «تحريم بيع السلاح للعدو تحريما باتا لا رخصة فيه ولا استثناء»، ثم ترك الدعاء فيها للملك على غير عادته[٣٦].

ج- حرض الناس -بعد اعتقاله- على البطش بمن يغشى أسواقهم من الصليبيين[٣٧].

د- ثبت، رافضا الفرار من السلطان[٣٨].

وقد كان طرد ابن عبد السلام من دمشق من نتائج ذلك الموقف، فلجأ إلى مصر، وحرض ملكها على مواجهة سلطان دمشق وحلفائه الصليبيين، وجرت المعركة بـ«تل العجول»، وانتصر فيها المصريون بعد أن «أوقعوا بالفرنج وقتلوا عددا كبيرا...»[٣٩].

الموقف الثاني لما بنى الصاحبُ معين الدين وزير السلطان «غرفة له على سطح مسجد يجاور بيته، ليتخذها مقعدا له يقابل فيه أصدقاءه. فأنكر ذلك عليه الشيخ ابن عبد السلام، وأمر بهدم ما بنى، فلم يفعل، فشكا أمره إلى السلطان فتغاضى عنه، فما كان من الشيخ إلا أن غضب لدينه وقال كلاما شديدا في السلطان، ومضى بنفسه وأولاده يحملون المساحي والفؤوس حتى هدم البناء، ونقل ما على السطح. ثم أشهد على نفسه أنه أسقط شهادة الوزير، فلا تقبل له شهادة، وأنه عزل نفسه عن القضاء، وجهر بأنه لا يتولى القضاء لسلطان لا يعدل في القضية، ولا يحكم بالسوية»[٤٠]، ويروي لنا السبكي أن الخليفة المستعصم لم يقبل رسالة الملك الصالح؛ لأن الرسول سمعها من الوزير لا من السلطان مباشرة، وقد قال: «إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام، فنحن لا نقبل روايته، فرجع الرسول إلى السلطان حتى شافهه بالرسالة، ثم عاد إلى بغداد وأداها»[٤١].

والموقف الثالث لما اتخذ قطز قرارا بتجهيز الجيش لمواجهة التتار، وتفكيره في فرض ضريبة على الناس لتوفير المال اللازم لذلك، «فعقد مجلسا حضره العلماء والقضاة والأمراء والوزراء والأعيان، وفي مقدمتهم عز الدين ابن عبد السلام، فاستفتى الملك المظفر العلماء في جواز فرض الأموال على العامة لإنفاقها في العساكر، فتهيب العلماء في الإفتاء...فظلوا يتدافعون الإفتاء حتى صدع ابن عبد السلام بفتياه العظيمة...في وجوب أخذ أموال الأمراء وأملاكهم حتى يساووا العامة

في ملابسهم ونفقاتهم، فحينئذ يجوز الأخذ من أموال العامة، وأما قبل ذلك فلا يجوز»[٤٢]، وتصف لنا الرواية حجم الإحراج الذي وجد الملك نفسه فيه، والصعوبات التي تعترض التنفيذ لقوة شوكة الأمراء، وشدة تمسكهم بالدنيا، مما اضطره أن يراجع ابن عبد السلام لعله يتراجع، ولم يفعل؛ بل ذكره بالله، وأغلظ له في القول[٤٣]، ولم يكن أمامه وقتها بسبب قوة شخصية ابن عبد السلام، وما يتبعها من سلطة فتواه إلا أن يحاول مع الأمراء باللين، فلما لم يوفق استعمل معهم الحيلة[٤٤].

وتقدم الرواية الحدث من زاوية أخرى، إذ خوّف بيبرس الملك من جرأته على الأمراء، «وكان غرضه بذلك أن يحمل الملك المظفر على نقض ما أفتى به ابن عبد السلام، ليغضب هذا العالم لدينه فيثير الناس على المظفر»[٤٥]، ويفيد هذا حجم المأزق الذي وجد المظفر نفسه فيه، فهو بين قوتين: قوة الأمراء، وقوة ابن عبد السلام، وانتصرت قوة ابن عبد السلام – حسب الرواية – لسببين: أولهما يرتبط بقوة شخصية هذا العالم الجليل المرتبطة بقيمة علمه وفرادة مواقفه، وثانيهما لأنه ظل المرشد الروحي له، والرواية تذكر لنا حجم إعجاب قطز بهذا العالم منذ لقيه في دمشق ودعا له أن يملك، وأن يجمعه الله ببنت خاله جلنار، شريطة أن يقوم بالعدل[٤٦]، ثم ترددَ عليه وهو بمصر، وأخذ برأيه في العديد من المواقف بما فيها تنحية الملك الصغير[٤٧]...

تجعلنا المواقف والملاحظات السابقة نخلص بخصوص صورة العالم في رواية «وا إسلاماه» إلى أنها ميزت بين العلماء الربانيين وعلماء السوء، وقد مكنت للعلماء الربانيين، حتى منحتهم نصف مساحة الرواية تقريبا، وهي في ذلك تجعل الأصل في العالِم أن يكون إيجابيا، وتعتبر أن هذا هو الذي يجب الاحتفاء به، وأن سقطاتِ السلبيين لا تستحق أكثر من إشارة عابرة، ليكون وجودهم في تاريخ العلم وحملته عابرا، ولتبقى صورة الربانيين ناصعة ثابتة: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فيمكث في الأرض﴾[٤٨].

٣- واقع المرأة

لحضور المرأة في «وا إسلاماه» أربعة عشرا وجها[٤٩]، وأكثرها مرافقة لنا في الرواية

ثلاثة: حضور جهاد/جلنار، وأم موسى، وشجرة الدر، ويثير هذا الحضور قضايا في مقدمتها الشرف، والحب، والسلطة.

أ- المرأة والشرف

تثير الرواية هذه القضية منذ الصفحة الثانية من الفصل الأول عند الحديث عن مصير جدة جلال الدين وعماته(أم خوارزم شاه وأخواته) اللواتي أسرهن التتار بعد هزيمة خوارزم شاه في الري، وقد شكل هذا الأسر جرحا نفسيا ظل ينزف حتى إن جلال الدين بن خوارزم شاه فضل لو أن أباه قتلهن أو وأدهن أو أغرقهن على أن «يقعن سبايا في أيدي القوم، ويلقين الذل والهوان عندهم»[٥٠]، فالمرأة من هذه الزاوية يجب أن لا تقع في أيدي العدو؛ لأنه لن يرعى لها حرمة، وسيُسيمها أنواع الذل والمهانة.

ما يثير الانتباه في الرواية هو أن الإحساس بمأساة الأسر – ولاسيما لدى التتار – لم يكن مرتبطا فقط بغيرة الرجل ودفاعه عن شرفه؛ بل كان قاسما مشتركا بينه وبين المرأة، ومن ثم وجدنا أن أم جلال الدين وأخته جهان خاتون وزوجته عائشة خاتون ألححن عليه أن يُغرقهن لما أيقنَّ هزيمته:«ولكن العدو عاجله قبل أن يجد السفن اللازمة لحمل أهله وحريمه وأثقاله، فأقبل على أهله ونسائه...فلما رأينه صحْنَ به قائلات: لا ينبغي أن نقع في أيدي التتار. بالله عليك اقتلنا بيدك، وخلصنا من الأسر والعار. صادف هذا القول هوى في نفس جلال الدين؛ إذ كان قد عزم على قتلهن خيفة أن يقعن أسيرات في أيدي العدو، فأمر رجاله بإغراقهن في نهر السند، فابتلعهن اليم وهو على حافة النهر ينظر إليهن بعين دامعة، ويشيعهن بقلب مكلوم»[٥١].

وإذاً الحفاظ على الشرف قاسم مشترك بين الرجل والمرأة، والخوف من العار جعل الرأي يلتقي في ضرورة النجاة من الأسر لدى عدو من حجم التتار وطبيعتهم ولو بالقتل، غير أن هذا الإغراق – وإن كان فيه هو نفسه كلام – لم يحل المشكلة النفسية لدى جلال الدين، فظل يتحسر على هذا اليوم الذي فعل فيه ما فعل[٥٢].

ب- المرأة والحب

توشك رواية «وا إسلاماه» أن تكون أيضا رواية حب بعد أن كانت رواية جهاد، فخلال الرواية كلها ترافقنا شخصيتان هما جهاد/جلنار ومحمود/قطز، منذ كانا طفلين يلعبان بين يدي جلال الدين في الهند والسند، حتى زواجهما بمساعدة شجرة الدر، واستشهادِ جلنار مدافعة عن زوجها، واستشهادِ زوجها غدرا في طريق عودته إلى مصر بعد انتصار عين جالوت.

تتخذ العلاقة بين جلنار وقطز بعدين: عائليا لكونها بنت خاله جلال الدين، وعاطفيا بعد أن تحولت تلك القرابة إلى شعور عاطفي أسهمت في تطوره وتماسكه مجموعة من المحن المشتركة منها هزيمة جلال الدين، وقتله، والرقّ، والتفريق بينهما...، وقد ظلت هذه العلاقة حتى في لحظات تطورها التصاعدي شفيفة، إذ وصفتها الرواية على لسان العز بن عبد السلام في دعائه لقطز بـ:«اللهم إنّ في صدر هذا العبد الصالح مضغة تهفو إلى إلفها في غير معصية لك، فأتمم عليه نعمتك، واجمع شمله بأمَتك التي يحبها على سنة نبيك محمد ﷺ»(٥٣).

تتخذ الرواية بذلك شكل تجربة حب عفيف تطور شيئا فشيئا ممزوجا بشيء من الصبر والإخلاص والتضحية، لينتج زواجا شفافا صارت فيه الزوجة سندا لزوجها، وصار هو سكنا لها، حتى فدته بحياتها، وذكَر لها جميلها، وقد ظلت حريصة أن يكون شعار الإسلام أعلى، فعندما كانت تقاسي ألم الطعنة في عين جالوت بعد أن تصدت لمن كان يريد قتل زوجها قائد المعركة وصرخ هو «وا زوجاه، وا حبيبتاه» صححت له الرؤية؛ لأن حبهما قام على مبادئ الإسلام، وآن له أن يتوج بإكليل خدمته، فقالت: «لا تقل وا حبيبتاه ... قل وا إسلاماه»(٥٤)، فاستثمر هذه النصيحة الغالية في المعركة، وصار نداء الحض على الجهاد، والثبات في المعركة، والتنكيل بالتتار(٥٥)، ومن ثم تحول كذلك إلى عنوان للرواية كلها.

يمنحنا ما سبق الحق أن نعتبر عنوان الرواية دالا على أن العلاقة العاطفية يجب أن تظل مؤطرة بهذا الإطار الذي يراعي الإسلام ويخدمه، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت شفافة عفيفة يبحث فيها الإلف عن إلفه، ويصبر على ذلك، ولا يتعجل فيقع في ما يحوله إلى تلبية لغريزة حيوانية قد تدمره في لحظة طيش، وتنحرف به عن مساره الحقيقي.

ولا نجد في الرواية كلها مثيلا لتلك العلاقة البريئة، رغم كثرة المحاولات التي تريد أن تتزيى بمظهر عاطفي بريء، من ذلك مراودات فاشلة لموسى ابن الشيخ غانم المقدسي لجلنار(٥٦)، وعلاقة شجرة الدر بعز الدين أيبك التي اتخذت شكلا عاطفيا شفافا في البداية، ثم سرعان ما كشفت عن حقيقتها الانتهازية في الصراع على السلطة، كما سنرى لاحقا.

ج- المرأة والسلطة.

تجسد «شجرة الدر» هذا المنحى في الرواية، ويتخذ حضورها من هذه الزاوية ثلاث واجهات:

في الأولى تدير المعركة ضد الصليبيين بعد وفاة زوجها متسترة على وفاته حتى لا ينهزم الجيش، وذلك في انتظار وصول ابنه توران شاه، وهي التي «مهدت له الدولة، وضبطت الأمور في مغيبه»(٥٧).

وفي الثانية عُيِّنت ملكةً بعد أن قتل توران شاه «بإجماع أمراء المماليك الصالحية، واتفاق أعيان الدولة وأهل المَشورة»(٥٨)، وقد قامت «بتدبير مملكتها أحسن قيام. يعاونها في ذلك أتابكها عز الدين وغيره من مماليك زوجها ووزرائه المحنكين وقواده العظام»(٥٩). غير أن هذا الاستقرار لم يشفع لها أمام الخليفة العباسي الذي بعث كتابا ينكر ما فعله الأمراء ويقول لهم:« إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا»(٦٠)، ولم تجد عندها بدا من عزل نفسها متنازلة عن العرش لأتابكها عز الدين أيبك.

وفي الثالثة حرصت على أن تظل ممسكة بزمام الأمور من وراء ستار، فقد كانت «تحب السلطة وتعشق النفوذ والسيطرة، ولم تعتزل الملك إلا مغلوبة على أمرها، وكانت ترى في نفسها الجدارة للحكم، والكفاية لتصريف الأمور، وأنها ما قعد بها عن الاستمرار في الجلوس على أريكة السلطنة إلا كونها أنثى»(٦١)، وقادها هذا إلى الزواج بعز الدين أيبك الذي كان يحبها، بعد أن دفعت بقطز إلى قتل الفارس أقطاي المهدد الحقيقي لسلطتها وسلطة عز الدين(٦٢)، ولاسيما بعد أن قرر الزواج من بنت صاحب حلب وإسكانها القلعة بعد طرد «شجرة الدر» منها(٦٣)، غير أن هذا الزواج الذي رآه كل من عز الدين وشجرة الدر من زاوية سرعان ما اصطدم بحواجز لا حصر لها، حتى فكر كل منهما في التَقَوِّي بجهة خارجية، «فبعثت إليه من حلف له بأنها ندمت على ما كان منها في حقه، واشتاقت إلى مصالحته، ونزلت عن إلزامها إياه بتطليق أم ولده، وأنها ما فعلت ذلك إلا بدافع من حبه والغيرة عليه..فرَقَّ لها الملك المعز حتى بكى وغلبه الحنين»(٦٤)، ثم كان هذا الحنين مدخلها للتخلص منه، فقُتل في الحمام ليلا بأيدي جماعة من خدمها(٦٥)، ثم أُمر بها بعدُ فضربتها الجواري بالقباقيب حتى ماتت(٦٦).

وتعلمنا الرواية أن هاجس السلطة يقتل الحب، ويبلد الحس، فلا يزن القلب

الأشياء إلا بمدى علاقتها بالمنصب، ومن ثم يسهل التضحية بتلك المشاعر حالما تظهر بارقة تعارض بين القلب والكرسي، ومع أن الرواية تصف عز الدين بأنه كان يحب شجرة الدر إلا أنها تعتبره نقطة الضعف التي استغلتها شجرة الدر لتصفية حسابها مع خصومها بما فيهم توران شاه، وأقطاي، وعز الدين أيبك؛ بل تتجاوز هذا المستوى لتوظف العلاقات العاطفية بين الآخرين لمصلحتها كذلك، ومن ذلك أنها جعلت شرط تنفيذ وعدها لقطز بتزويجه بجلنار أن يقتل أقطاي، بعدما علمت درجة حبه لها، واستعداده للتضحية من أجلها[٦٧].

٤- ميزان الأفعال

لا يسمح السارد للأفعال أن تشذ عن قيد النتائج، ومن ثم رأينا الرواية تسلط الضوء على نقط الانحراف ثم تكشف النقاب عن النتيجة، والأمثلة في ذلك كثيرة نكتفي منها بهذه النماذج:

أ- التنجيم

تشير الرواية إلى أن استشارة المنجمين كانت ديدن مجموعة من السلاطين، وأن جلال الدين لم يكن بدعا في ذلك، ومن ثم فقد كان يستشيرهم كلما هم بأمر عظيم، «فلما أراد المسير لقتال التتار بعث إلى منجمه الخاص فحضر عنده، فأمره بالنظر في طالعه، فقال له المنجم: «إنك يا مولاي ستهزم التتار ويهزمونك، وسيولد في أهل بيتك غلام يكون ملكا عظيما على بلاد عظيمة، ويهزم التتار هزيمة ساحقة»[٦٨]، وعندما سأله السلطان: متى سيولد الغلام؟ أجابه المنجم:«إنه يولد في خلال هذا الأسبوع»[٦٩]. وقد كان لهذا الكلام أثره، ومنه حجم الهم الذي لحق جلال الدين[٧٠]. كما أن رأي المنجم ظل يظهر ويختفي من حين لآخر، ومن ذلك أنه ظهر مرتين متفاوتتين: لما اختُطف الطفلان محمود وجهاد، واضطر سلامة أن يُذكِّرها برأي المنجم ليخفف عنهما، ويرفع من معنوياتهما وهما يقادان إلى الرِّق[٧١]، ولما لقي قطز ابن عبد السلام وسأله رأيه[٧٢].

ما يهمنا مما سبق أن حضور المنجمين وتطاولهم على الغيب يدفعنا إلى زاوية تناول السارد له، وموقفه منه، وذلك ما يظهر من مستويات في مقدمتها:

أ- جعَل نتيجة رأي المنجم همّا وغمّا ظلا مرافقين لجلال الدين، كما رأينا.

ب- ساق مجموعة من المواقف من لدن مجموعة من الشخصيات تبين تهافت ذلك الرأي، منها ممدود والد محمود/قطز، والشيخ ابن عبد السلام:

أما ممدود زوج أخت جلال الدين فحاول جاهدا أن يبطل قول المنجم ويسفهه بربط علم الغيب بالله تعالى، وجعل مهمة الرجل التبشير لا التخويف، وذلك لمنع التأثر بقول المنجم، فقد قال له أمام السلطان:«يا هذا لا يعلم الغيب إلا الله، وإنما جئنا بك لتبشر السلطان لا لتخوفه، وليس السلطان بمن يخاف تنبؤاتك»[٧٣]. ولدى ممدود اقتناع راسخ أن المنجم دجال، وأنه« لا بد أن يكون قد علِم بحمل زوجة السلطان وقرب وضعها، ولا يعز عليه بعد ذلك أن يتنبأ بأنها ستلد ذكرا، فإذا ولدت أنثى فلا بأس عليه من ذلك؛ لأنه لم يقل يولد للسلطان، وإنما قال يولد في أهل بيته، وأقارب جلال الدين في غزنة وغيرها لا يحصون كثرة..هكذا يرى ممدود في هذا المنجم وغيره من المنجمين والضاربين للرمل والقارئين في الكف أنهم ليسوا إلا دجالين يدَّعون معرفة الغيب بما أوتوا من براعة وفطنة في تبين أحوال من يستفتيهم، وتقصي أسراره ودخائله، وعلى قدر هذه الفطنة والبراعة يوفقون إلى إصابة الحقيقة في تنبؤاتهم وتخرصاتهم»[٧٤].

وأما الشيخ ابن عبد السلام فقال بعد أن أخبره قطز برأي المنجم – كما سمعه خاله جلال الدين، وكما ذكَّره به سلامة – سائلا إياه رأيه:« إنها تخرصات تخطئ وتصيب، وقد نهى الشرع عن التنجيم؛ لأنه تسور على الغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله...هذا قضاء الشرع يابني، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وأنه لا يتم إيمان المرء حتى يسلم كل التسليم بما قضى الشرع، ولا يجد في نفسه حرجا منه، وما أريد أن أقطع أملك يا قطز، وقد قلت لك: إنها تخرصات تخطئ وتصيب..وما يدريك لعلها تصيب فيك، فطب نفسا يا بني»[٧٥]، ولم يزد قطز بعد سماع ذلك أن قال:«إنما هي يا مولاي الشيخ علاقة كانت في النفس، وقد آمنت وسلمت بالشرع، وسلمت بما قضى»[٧٦].

وكأني بالسارد – وقد أشار إلى ارتباط مجموعة من السلاطين بالدجل- قد قرر أن يسوق موقفا منه، فاختار أن يزنه بميزان العقل والشرع، وجعل ممدودا يزن بالميزان الأول، والشيخ ابن عبد السلام يزن بالميزان الثاني، ثم لم نسمع للمنجمين بعد ذلك صوتا، فليس بعد كلام الشرع والعقل كلام. ويبدو هذا الحسم مع المنجمين موقفا للسارد نابعا من رغبته في وضع حد لهذا السلوك المخالف لأحكام الشيعة، ودليل ذلك أنه وضع حدا له في مرحلة دمشق، بينما تذكر لنا بعض المصادر قصة لقطز مع مُنجّم في مرحلة مصر، ولاسيما في زمن أستاذه عز الدين أيبك[٧٧].

ب- مصير الظَّلَمَة.

من نماذج تعقب الرواية للظلمة جلال الدين وبيبرس:

ب-١: جلال الدين

لما انتصر جلال الدين على التتار، وأحس بحاجته الماسة إلى مزيد من الدعم لتقوية جيشه في معركة أحس أنها حاسمة معهم، راسل ملوك المسلمين في العراق والشام، وتفاوتت ردودهم في طبيعة تنصلها ورفضهما، لكن رسالة الملك الأشرف كانت أكثرَها وقاحةً وغلظةً، «فكاد جلال الدين يتميز من الغيظ، وأقسم ليغزون بلاد الأشرف، وليفعلن بها الأفاعيل حتى يصدق بذلك قوله أن لا فرق بينه وبين التتار المتوحشين، فتوجه إلى خِلاط فهجم عليها، وقتل أهلها، ونهب أموالها، وخرب قراهم... بعد أن زلزل تلك البلاد وروعها ونهبها وفعل بها فعل التتار»[٧٨]، ولم يمهله الله تعالى، فقد كانت فعلته هذه قاصمة الظهر، فقَدَ بعدها مباشرة ابنيه، وانهزم جيشه، وقتل طريدا في أحد جبال الهند من لدن كردي موتور كان قد قتل أخاه في خِلاط[٧٩].

ولا تترك الرواية المناسبة تمر دون أن تشير إلى قبيح فعل جلال الدين، وتربط سياقيا بين اعتدائه على المسلمين وعاقبة أمره، ففي الصفحة نفسها التي يصف فيها السارد ما فعله جلال الدين بالمسلمين نقرأ: «وكأن الله شاء أن يعاقبه على ما أنزل ببلاد المسلمين من الخسف والدمار... انسياقا مع هواه الذي أعماه عن رؤية الحق، وأضله عن سبيل المؤمنين، ...فافتقد في طريقه هذا ثمرتي قلبه، وأنس حياته محمودا وجهاد حين كان يجتاز بلاد الأكراد قافلا إلى بلاده، فطلبهما في كل مكان، والتمسهما في كل سبيل، فكأنما ابتلعتهما الأرض»[٨٠].

وقد حرصت الرواية على أن تصور لنا ما آل إليه حال جلال الدين نتيجة ذلك من الهم والحزن، والاستغراق في السكر، والهذيان، والفرار من التتار وهو يتعقبونه يريدونه حيا، ولو أرادوا قتله لفعلوا، وتسوق في السياق نفسه تمثل أبيه خوارزم شاه له، وتشنيعه عليه فعله بالمسلمين، وبراءته منه: «لست أباك... إني أبرأ إلى الله من عملك، ولو استطعت أن أبرأ منك لفعلت. أبعد جهاد التتار المشركين رجعت تقاتل المسلمين وتستحل دماءهم؟»[٨١].

ب-٢: بيبرس

تمثلت زلته الكبرى في قتله الملك المظفر قطز وهو عائد بالجيش من معركة عين جالوت، وكان السبب المباشر إخلاف قطز وعده له بتوليته على حلب. عد بيبرس ذلك انتقاصا من دوره في المعركة، وبخسا لحقه، وأوغر الأمراءُ صدرَه ضد قطز مدعين أنه إنما يريد تصفيته على عادة السلاطين مع منافسيهم الأقوياء وقتذاك، وقد جعلت الرواية بيبرس يندم مرتين:

- لما أخبره قطز وهو يعالج سكرات الموت أنه كان سيتنازل له عن العرش لما يعود إلى مصر[٨٢]، بجعل بيبرس يقول بعد أن أمر قطز الجند بطاعته: «يا خوند، اذبحني يا خوند، ويلي، قتلت سلطان المسلمين، قتلت هازم التتار، قتلت صديقي الكريم»[٨٣].
- لما وقف بيبرس ذات يوم على كتاب لقطز من ابن الزعيم، فلما قرأه «تدحرجت دمعتان كبيرتان على خديه حتى توارتا في لحيته، وجعل يقول بصوت لا يسمعه غيره: «رحمة الله عليك يا صديقي قطز، لشد ما أتعبني اقتفاء أثرك، وما أراني بعد الجهد الطويل أبلغ بعض ما بلغت»[٨٤].

ولا يخفى أن النموذجين السابقين يشكلان مظهرين من مظاهر مآل الظالم، والرواية إذ رصدت لنا بالتفصيل ما آل إليه حال جلال الدين، تفعل الشيء نفسه مع بيبرس، غير أنها تتناول المآل من زاوية نفسية، وذلك من خلال إظهار ندمه، وتحسره، وإجلاله لقطز.

ج- الجهاد الحق[٨٥]

رواية «وا إسلاماه» رواية جهاد بامتياز، تقدم منذ عنوانها تجارب المجاهدين في انتصارهم وانهزامهم، وتتعدد الأسماء فيه، لكن شخصية «قطز» هي الشخصية الوحيدة المجاهدة التي ظلت ترافقنا منذ البدايات الأولى للرواية، وكأنما أريد لها أن تصنع على عيني القارئ، وأن تتشكل أمامه، لتقدم له معالم طريق الجهاد الرباني الناجح، وهي عندما فعلت ذلك حرصت على أن تقدم لنا صورة متكاملة عن هذه الشخصية من زوايا متعددة، منذ كان طفلا حتى خاض معركة عين جالوت وعاد منها منتصرا، وهي ترسم لنا معالم حقيقية لخوض معركة ربانية ضد عدو وإن كان بحجم التتار، وتعلمنا أن الجهاد ليس مجرد معركة مسلحة؛ بل هو تربية وإيمان، ثم إعداد للقوة حسب المستطاع.

يعلمنا درس قطز كذلك أن المعارك الحاسمة تحتاج إلى تجاوز الحسابات الضيقة الصغيرة داخل الصف الواحد؛ لأن الانتصارات الكبيرة لا تحرزها إلا الهمم العالية التي أنكرت ذاتها، وجعلت صوت القضية يعلو فوق كل الأصوات الأخرى.

لأجل تلك الأخلاق التي يتطلبها الجهاد، وللمحافظة على طهارته، ظلت الرواية ترسم صورة مشرفة للشخصية التي ستقود المعركة، وتسوقها في تحركها الواعي الهادئ المتزن نحو موعدها مع التاريخ، لتؤدي شهادتها على عصرها، ومن ثم جعلتها فوق المناصب قبل المعركة وبعدها، فهي أجل وأسمى من أن تشدها الدنيا نحو الأسفل، بينما همتها العالية لا ترضى لها إلا بأن تسمو نحو الأعالي، وأن تكون في مستوى الحدث بلغة يومنا، ثم أن تغادر الدنيا في طهريتها تاركة بصماتها على صفحات التاريخ.

ثالثا: مرجعية «وا إسلاماه» من زاوية مختلفة

تبدو رواية «شجرة الدر» لجرجي زيدان أكثر ملاءمة للمقارنة مع «وا إسلاماه» لسببين هامين:

- كونها تعنى بالفترة نفسها التي عنيت بها رواية «وا إسلاماه»، ولا سيما في مصر.
- كونها لروائي متميز برؤيته الفكرية، وما راكمه من تجربة في مجال الرواية التاريخية.

ومن المفيد أن نقدم بداية صورة موجزة للعناصر الأربعة التي درسناها في رواية «وا إسلاماه»، لنتمكن من المقارنة بين مرجعيتي الروايتين:

أ- سلطة النص: لا يتجاوز حضور نصوص الوحي في «شجرة الدر» نصين حديثين، أولهما ورد ضمن نص رسالة الخليفة العباسي لأمراء مصر بعد تولية شجرة الدر«... ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»[٨٦]، وثانيهما «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان»[٨٧].

ب- صورة العالم: لا ذكر للعلماء في الرواية، لا بالاسم، ولا بالصفة.

ج- واقع المرأة: مع أن عنوان الرواية هو «شجرة الدر» إلا أنه في الحقيقة كان ينبغي أن يكون «شوكار»؛ لأنها الفتاة التي عليها مدار أحداث الرواية في ارتباطها ببطل الرواية ركن الدين بيبرس، وتجمعهما علاقة عاطفية تتحدى الظروف، وتثبت في وجه المحن، لتتوج بالزواج.

والمرأة في الرواية لا تخرج عن أربع وظائف:

ج-١: مصارعة على السلطة، وقد تهتم بالعلاقة العاطفية؛ لكنها تجعلها تابعة لهدفها الأول، وتحاول جاهدة أن تجعلها وسيلة لتحقيقه، وشخصية شجرة الدر خير مثال على ذلك، وهي لا تكتفي باستغلال حب عز الدين أيبك لها لدعم رصيدها في التحكم في البلاد؛ بل تضيف إليه توظيف علاقات الآخرين للهدف نفسه؛ إذ كانت سبب علاقة شوكار ببيبرس، وقد رعت هذه العلاقة، وسمحت لها أن تتطور أمام عينيها، مستفيدة منها[٨٨].

ج-٢: باحثة عن زوج من العيار الثقيل: وسلافة أهم نموذج لها، وهي تبذل جهودا للتأثير في المسار السياسي للبلد، لكنها تفضل أن تجعل ذلك وسيلة لكسب قلب رجل، فقد كانت سبب عزل شجرة الدر، وإرسال شوكار إلى الخليفة العباسي، وجعلت ذلك وسيلة لكسب قلب عز الدين أيبك، بعد أن كسبته شجرة الدر، ثم لما فقدته حاولت مع بيبرس بالإغراء والغواية والمراودة، وفشلت، وقد قتلت فيما بعد[٨٩].

ج-٣: عاشقة، وهذا حال «شوكار»، فهي فتاة تنظر إلى الحب نظرة مثالية، ولا يهمها من الدنيا إلا أن يتزوجها بيبرس، ومن ثم فضلت ذلك على نعيم القصر العباسي مثلا[٩٠].

ج-٤: خادمة، وهذا حال جواري القصور بما فيها أقحوانة قيمة دار نساء الخليفة، وهؤلاء لا يتجاوز دورهن غالبا خدمة الخلفاء والسلاطين، إلا ما كان من أمر هذه القيِّمة صديقة سلافة التي كانت لها كلمة مسموعة لدى الخليفة العباسي، فتدخلت لديه لعزل «شجرة الدر»؟![٩١].

والرواية في الحقيقة رواية حب، لا تُعنى بالأحداث المختلفة إلا من زاوية ما تخدمه، ولا سيما الحب المتبادل بين بيبرس وشوكار، وفي ضوء هذه العلاقة تحاكم أنواعا من محاولات الآخرين التي يغلب على بعضها المنفعة الذاتية(شجرة الدر مثلا)، وعلى بعضها الآخر الرغبة العاطفية(سلافة مثلا).

د- ميزان الأفعال: لا تتصرف الرواية بمنطق وزن الأفعال وتقويمها، ومن أبرز أدلة ذلك أن ابن العلقمي وصديقه سحبان ارتكبا جريمة في حق أمتنا بتواطئهما مع التتار، وعملهما لمدة على القضاء على الخلافة العباسية، ومع ذلك لا تنتهي الرواية إلا وقد حصلا على حماية هولاكو، هما وشيعتهما[٩٢].

إضافة إلى ما سبق ينبغي أن نلاحظ في الرواية أمورا:

- تنظر الرواية إلى التاريخ باعتباره صراعا بين الحب والسلطة، وتقود إلى أن الحب ينتصر عندما يكون أقوى، وأنه إذا كان المرء من عيار بيبرس وُفق في الجمع بينهما معا.
- تُصْدِر أحكاما رهيبة في حق حضارتنا، ومن ذلك اعتبارها أن البرامكة «أصحابِ الفضل الأول» في الحضارة العباسية(٩٣).
- تُعنى بشكل مثير للانتباه - وغير بريء- بالصراع السني الشيعي في مصر وبغداد، وتجعل مظلومية الشيعة سببا لخراب بغداد، وتمنح ابن العلقمي من صفات الإخلاص للدولة العباسية، وصبره على الأذى، ومحاولاته للإصلاح... ما يجعل خيانته للأمة رد فعل مبررا، وواردا في سياق الغيرة وتغيير الأوضاع نحو الأفضل(٩٤).
- تُعنى بتفاصيل الهزيمة، وعناصر الصراع الداخلي في الأمة، وتمسخ تاريخها، لتجعله كله صراعا على السلطة، أو على الرجال بين النساء.
- تُجَرِّد الأمة والحضارة من مركز الثقل فيها وهو نصوص الوحي.

ورواية «شجرة الدر» تقفز على مرحلة قطز مع أنها حاسمة في تاريخ الأمة، ولا تشير إلى معركة عين جالوت إلا إشارة عابرة، لم تذكرها حتى بالاسم، وقدمتها في صورة ملغومة ختم بها جرجي زيدان روايته بعد أن عاد بيبرس بشوكار من بغداد، وتركا المدينة وحدها تغرق في طوفان التتار على مرأى من الشيعة وتلذذ منهم، وهذا النص يكشف كل ما يستحقه قطز وعين جالوت من عناية جرجي زيدان: «...ووجد سلطانَ مصر نورَ الدين بن عز الدين، فحرض الأمراء على التنمر منه؛ لأنه غلام لا يصلح للحكومة، وبايعوا بعده سيف الدين قطز سنة ٦٥٧ هـ؛ لأنه من سلالة ملوك خراسان، فصبر ركن الدين على ذلك وهو يسعى لتحقيق أمنيته ليتم له ما دبره من أمر نقل الخلافة إلى مصر.

وفي السنة التالية زحف هولاكو على سوريا وبعث يهدد قطز، فشاور الأمراء فأشاروا عليه بالحرب وفي مقدمتهم ركن الدين، فجرد حملة سار ركن الدين فيها، واضطر هولاكو إلى الرجوع لموت والده، وأخذ معظم جيشه معه، والتقى ما بقي من رجاله بجيش قطز في فلسطين في معركة فاز فيها المصريون وعادوا ظافرين. فاغتنم ركن الدين فرصة في أثناء رجوعهم وقتل قطز، وكان

قد تواطأ على ذلك مع رفاقه الأمراء ورضوا أن يتولى مكانه، فنادوا به سلطانا على مصر سنة ٦٥٨ هـ، ولقب بالملك الظاهر، وحالما استقر له الأمر بعث في استقدام الأمير أحمد فجاءه في السنة التالية، فبايعه خليفة، ولقبه بالمستنصر بالله، وصارت الخلافة العباسية بمصر من ذلك الحين»(٩٥).

فهل يمكن أن نجد رواية تاريخية تقتل تاريخنا أكثر من هذه؟

تعتبر قطز نكرة، وتتجاهل اسم عين جالوت، وتغرقنا بالمقابل في علاقة عاطفية بين شوكار وبيبرس، وفي تفاصيل مظلومية الشيعة، وتفاصيل مزعومة لجهود ابن العلقمي في النصح للسنة والإخلاص لدولتهم، وفي بطولة التتار وشجاعتهم ورجولتهم. بعبارة واضحة تستلب منا النصر، وتغرقنا في تاريخ الهزيمة؛ إذ لما رأينا سنا برق النصر بادرت بستره بسرعة سنة تقريبا في السطر، إنه «مكر الرواية بالتاريخ» كما يحلو لي وصفه، فما الذي أبقته الرواية لأمتنا بعد أن عرفنا ما سبق؟ الجواب هو ما نقدمه عندما نعرض ما قدمته بالمقابل «وا إسلاماه»:

تعترف رواية باكثير أن تاريخنا ليس تاريخ ملائكة، ولكنه في الوقت نفسه ليس تاريخ أبالسة، فهو تاريخ أناس يتفاوتون صلاحا وفسادا، ومن ثم تجعل معيار قراءتها له الدور البطولي لأمتنا في صراعها مع التتار والصليبيين، وتجعل ذلك همها الأول، وحتى عندما تعنى بالعلاقات العاطفية، تفشل العلاقات التي تتخذ الحب مطية للسلطة، وتسمو بعلاقة قطز بجلنار إلى مرتبة أن تكون في خدمة الإسلام.

وهي تركز على الانتصارات، وعندما تذكر الهزائم توردها في سياق قراءة سنن التاريخ، ثم سرعان ما توجه أنظارنا إلى انتصارات تتلوها، معتبرة نصوص الوحي مركز تفكير المسلمين في غالبهم، وتحيطها بقداسة في مناسبات عديدة، وبعضها لها دور حاسم في تاريخ الأمة، ثم لا تنسى أن تثير انتباهنا إلى العلماء باعتبارهم خدام هذه النصوص...

شتان إذاً بين من يهمل نصوص الوحي والعلماء ودورهما في صياغة أحداث تاريخ أمتنا، ويقفز على الانتصارات العظيمة لهذه الأمة، ويقتصر على العلاقات العاطفية، ويُعنى بشكل مثير للاستغراب بتاريخ الهزائم، وبين من يعي جيدا مدى تفاعل أمتنا مع نصوصها، ودور علمائها في ذلك التفاعل، ولحظات النهوض بعد لحظات السقوط، وعناصر الفعالية في الحضارة والتاريخ.

رابعا: إشكالات الرواية التاريخية من زاوية إسلامية

تثير الرواية التاريخية ثلاثة إشكالات كبرى: يتعلق أولها بالمرأة، وثانيها بعلاقتها بالتاريخ، وثالثها براهنيتها.

١- إشكال المرأة

يكمن إشكال المرأة في كون الروايات التاريخية -وضمنها «وا إسلاماه» و«شجرة الدر»- تدعم معالجتها للتاريخ بمسحة عاطفية تضطر في كثير من الأحيان إلى تخيلها تخيلا، كتخيل «جلنار» في «وا إسلاماه»، و«شوكار» و«سلافة» في «شجرة الدر»[٩٦]... ، وتتبع هذه الخطوة خطوة أخرى تكمن في ربط علاقة عاطفية تتخذ مسارا تصاعديا ناجحا يتحدى مجموعة من الصعوبات ليثبت تفوقه أمام الأزمات، ضامنا بذلك قدرا من الجاذبية للرواية.

وقد يكتفي الروائي باستثمار معلومات تاريخية طفيفة ثم يستثمرها في مستويات قصوى، ليقدم تجربة أصلها حقيقي، لكن فروعها كلها متخيلة، وأحسب «شجرة الدر» في روايتي باكثير وزيدان من هذا النوع.

والسؤال الذي يواجهنا هنا هو: هل من الضروري أن يكون للعلاقات العاطفية حضور في الرواية التاريخية؟

وفي رأيي الخاص أننا تأثرنا أكثر من اللازم بثقافة عصرنا وبأنماط الرواية التاريخية الغيرية فيه، وأننا صرنا - دون وعي، لاقتناعنا بأهمية العنصر العاطفي - نربي روائيا على العلاقات العاطفية قبل الزواج، وندفعهم دفعا نحو هذه العلاقات، بينما المطلوب منا أن نرفع من حجم الجانب العاطفي في العلاقات الزوجية لنقنع الناس أن حب ما بعد الزواج أبقى وأنقى وأجدى، وأن المودة والسكينة في الحب المتبادل بين الزوجين، وأعتقد أننا بهذه الطريقة سنخدم أمتنا مرتين: مرة عندما نشوق أبناءنا ليبادروا بالزواج بحثا عن الحب الحقيقي بما فيه من سكينة ومودة ولباس، وأخرى بمواجهة طوفان التفلت الأخلاقي والتشجيع العالمي على الفاحشة برا وبحرا وجوا.

٢- إشكال علاقة الرواية بالتاريخ

يثير هذا الإشكال مسألة بالغة الأهمية تكمن في حجم المصداقية التاريخية للرواية، وإذا كان من المسلم به أن الرواية ليست مصدرا للتاريخ، وأنها توظيف إبداعي يجمع بين الحقيقي والمتخيل، فإنه من المسلم كذلك أنها -

أي الرواية التاريخية- ذات فعالية كبيرة في تقديم صورة عن تاريخ ما لفئة واسعة من القراء، فإذا ما حُولت إلي فيلم حققت من الذيوع والانتشار ما لا تحققه كتب التاريخ التي تظل غالبا محصورة بين الباحثين والقراء المحترفين، ومن ثم فالإشكال لا يكمن في حجم الخيال في الرواية؛ بل في الصورة التي تقدمها لجماهير الناس عن التاريخ بما فيه من شخصيات وأحداث...

والأكيد أن الاحتجاج بأن الرواية ليست مصدرا للتاريخ ليس مبررا لتشويه أحداثه، ومسخها، وجعل ذلك وسيلة لفصلنا عن حضارتنا؛ بل إن كونها عملا إبداعيا يوظف أحداث التاريخ ينبغي في نظرنا - إن أراد أن يكون منسجما مع هويتنا وحضارتنا- أن يكون إيجابيا، يخدم الأمة ولا يمسخها، وأن ينظر إليها نظرة متوازنة ترصد عناصر التميز والضعف، ولا تفتري على الشخصيات والتاريخ...

ويرتبط بما سبق إشكال يتعلق بمصادر الرواية التاريخية، وهل من المقبول أن يكون همها جمع أكبر قدر من المعلومات من أي مصدرٍ لتوظيفه، والثابت لدينا في رؤيتنا أن الاستفادة من بعض المصادر غير الموثقة لكتابة رواية تاريخية إجهاز على تاريخنا، وافتراء عليه؛ لأننا نعلم أن مجموعة من المصادر تثير الاستغراب فيما تقدمه عن وقائع التاريخ، وبعضها يتعمد التشويه.

من ثم عندما نعرض «وا إسلاماه» على الإشكال السالف الذكر نلاحظ أن كاتبها كان حذرا في وصف الشخصيات وتحركها، فلم يجرؤ قط على تشويه صورة شخصية يذكرها التاريخ بخير، ولا جرؤ على تحسين أخرى تذكرها المصادر التاريخية بسوء، وشخصية قطز نموذج واضح في ذلك، فقد جُعل محور الرواية، ومضرب المثل في علو الهمة، ونبل الأخلاق، والغيرة على الأمة، والعفة،... وهي الصفات نفسها التي نقرؤها في العديد من المصادر:

فالذهبي(-٧٤٨هـ) يقول عنه:«...وكان فارسا شجاعا سائسا دينا محببا إلى الرعية، هزم التتار وطهر الشام منهم يوم عين جالوت...، ويسلم له إن شاء الله جهاده، ويقال: إنه ابن أخت خوارزم شاه جلال الدين، وإنه حر، واسمه محمود بن ممدود»[٩٨].

وابن كثير(-٧٧٤هـ) يقول:«كان رجلا صالحا، كثير الصلاة في الجماعة، ولا يتعاطى السكر، ولا شيئا مما تعاطاه الملوك... »[٩٨].

وأبو المحاسن(-٨٧٤هـ) يقول: « وكان بطلا شجاعا مقداما حازما حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير»[٩٩]، وعنده أن قطز قال: « رأيت النبي في المنام، وقال لي: أنت تملك الديار المصرية، وتكسر التتار»[١٠٠].

ويعني ما سبق أن هم باكثير كان هو تقديم نموذج منسجم مع حقيقة التاريخ الإسلامي، فلم تجره دعوى خيالية الرواية إلى جعلها شخصية مستهترة، أو هامشية، أو الشك في دورها، أو جعله راجعا إلى أسباب مشبوهة.

٣- راهنية الرواية التاريخية

لا تكتسي الرواية التاريخية المنسجمة مع حضارتنا وتاريخ أمتنا راهنيتها من مجرد كونها كتابة إبداعية عن تاريخنا يمكن نشرها على نطاق واسع؛ بل أساسا من كونها إحدى وسائل ممانعتنا الثقافية والحضارية في زمن تهددنا فيه العولمة بِما تحمله من قيم الآخر وحضارته وتصوره للكون والحياة والناس، وبما تمكن له من قوة الإرسال إلى درجة أن تدخل علينا الباب، وتفرض علينا نفسها ونحن في بيوتنا، فالرواية التاريخية وفق ذلك من وسائلنا لتحصين ذاتنا بلقاح الوعي بحضارتنا وتاريخنا، وبتجارب أمتنا في السقوط والنهوض. تمنحنا قوة الثقة بالنفس، والإحساس بالقدرة على استئناف دورنا الحضاري، وتبسط أمامنا أشكال النهوض المستمدة من تجاربنا السابقة...

الرواية التاريخية ليست ترفا إبداعيا - كما يُراد لها أن تكون لتصير صالحة لتسلية أناس أنهكتهم الآلة، وعادوا إلى منازلهم باحثين عن تسلية- بل هي رسالة في حاجة إلى رساليين يرابطون في هذا الثغر على بصيرة من التاريخ والحاضر والمستقبل.

الهوامش:

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق وضبط عبد السلام هارون. دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، ٢/٤٩٠، مادة«رجع».

(٢) م.س، ولسان العرب، ابن منظور. دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م. مادة«رجع».

(٣) معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، د.سعيد علوش. منشورات المكتبة الجامعية، الدار البيضاء، ١٩٨٤م، ص: ٦٠.

(٤) عن موقع علي أحمد باكثير، (http://www.bakatheer.com).

(٥) منهجية تدريس النص التراثي، د.محمد المالكي. ضمن «نحو منهجية للتعامل مع التراث الإسلامي»، معهد الدراسات المصطلحية والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط ١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ص: ٣٢٣.

(٦) مقاييس اللغة، ٥/٣٥٦.

(٧) صفحات النصوص القرآنية في رواية «وا إسلاماه» باللفظ: ٩، و١٤، و٢٠، و٧٠، و١١٣، و١١٧، و١١٧، و١٢٨، و١٢٠، و١٢٦، و١٤٩، و٢٠٧، و٢١٥، و٢٣٠، و٣٠، و٢٣١، وبالمعنى: ١٤، و٢٥، و٢٧، و٦٢، و٨١، و١٠١، و١١٧، و١٥٦، و٢٠٦، والنصوص الحديثية باللفظ: ١١٢، و١١٨، وبالمعنى: ٧١، و١١٧. انظر: وا إسلاماه، علي أحمد باكثير. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

(٨) ن.«وا إسلاماه»، ص: ١٤، ١٤، ٢٥، ٢٧، ٦٢، ٧١، ١١٧، ١٤٠، ١٥٦، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٥، ٢٣٠، ٢٣٠، ٢٣١.

(٩) م.س، ص: ٢٠، ٧٠، ٨١، ١٠١، ١١٣، ١١٨، ١٢٠.

(١٠) م.س، ص:٩، فقد قدم للرواية بمقدمة تصدرتها آيات من سورة التوبة يرد فيها ذكر الجهاد.

(١١) م.س، ص:٢٣١.

(١٢) وا إسلاماه، ص:١٤.

(١٣) م.س، ص:٢٠.

(١٤) م.س، ص:٢٠٦.

(١٥) في ظلال القرآن، سيد قطب. دار الشروق، بيروت/القاهرة، ط ١٧، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ٣/١٤٦٥.

(١٦) في ظلال القرآن، ٣/١٥٦٤.

(١٧) وا إسلاماه، ص: ٢١٢.

(١٨) سورة التوبة، الآية ٢٩.

(١٩) سورة محمد، الآية ٧.

(٢٠) البقرة، ٢٤٩.

(٢١) سورة آل عمران، الآية ١٦٩-١٧٠.

(٢٢) وردت نصوص الوحي في رواية «وا إسلاماه» على لسان السارد تسع مرات(ص: ٩، ٢٠، ٢٥، ٢٧، ٧٠، ٧١، ١١٢، ١٤٩، ١٥٦)، وعلى لسان شخصيات الرواية عشرين مرة(ص:١٤، ١٤، ٦٢، ٨١، ١٠١، ١١٣، ١١٧، ١١٧، ١١٧، ١١٧، ١١٨، ١١٨، ١٢٠، ١٢٦، ٢٠٧، ٢١٥، ٢٣٠، ٢٣٠، ٢٣١).

(٢٣) وا إسلاماه، ص: ١٠، و١١٧.

(٢٤) م.س، ص: ١٩٥.

(٢٥) م.س، ص: ٩٨.

(٢٦) م.س، ص: ١١٣.

(٢٧) م.س، ص: ١١٧.

(٢٨) طبقات الشافعية الكبرى، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ود. محمود محمد الطناجي. دار هجر، مصر، ط ٢، ١٩٩٢م، ٨/ ٢١٠.

(٢٩) البداية والنهاية، ابن كثير. دار التقوى، مصر، ط ١، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩، ١٣/ ٢٣٩.

(٣٠) طبقات الشافعية الكبرى، ٨/ ٢١٠.

(٣١) م.س، ٨/ ٢١٠.

(٣٢) وا إسلاماه، ص: ١١٢.

(٣٣) تنظر القصة كاملة في طبقات الشافعية الكبرى، ٢/ ٢١٦-٢١٧. ولعل عدم ذكرها مع أهميتها سببه أنها وقعت في زمن الملك الصالح أيوب قبل وصول قطز إلى مصر، ودخوله في خدمته.

(٣٤) وا إسلاماه، ص: ١١٦.

(٣٥) م.س، ص: ١١٦.

(٣٦) م.س، ص: ١١٦-١١٧.

(٣٧) م.س، ص: ١١٩.

(٣٨) م.س، ص: ١١٩ و١٢٦.

(٣٩) م.س، ص: ١٣٢.

(٤٠) م.س، ص: ١٤٥.

(٤١) طبقات الشافعية الكبرى، ٨/ ٢١٠.

(٤٢) وا إسلاماه، ص: ١٩٨.

(٤٣) م.س، ص: ١٩٩.

(٤٤) م.س، ص: ٢٠٢-٢٠٥.

(٤٥) م.س، ص: ١١٩.

(٤٦) م.س، ص: ١٢٣.

(٤٧) م.س، ص: ١٩٤.

(٤٨) سورة الرعد، الآية ١٧.

(٤٩) جدة جلال الدين، وعماته، وأمه، وأخته، وزوجته، وبنته جهاد/جلنار، وأم موسى، وشجرة الدر، وجواري الملك الصالح، ومرغريت زوجة لويس التاسع، وأم علي زوجة عز الدين أيبك، وابنة صاحب الموصل، وزوجة هولاكو، ثم الأسيرة التترية.

(٥٠) وا إسلاماه، ص:١١.

(٥١) م.س، ص: ٢٦.

(٥٢) م.س، ص: ٦٧.

(٥٣) وا إسلاماه، ص: ١٢٤.

(٥٤) م.س، ص: ٢٢٤.

(٥٥) م.س، ص: ٢٢٧.

(٥٦) م.س، ص: ٩٩.

(٥٧) م.س، ص: ١٥٩.

(٥٨) م.س، ص: ١٥٩.

(٥٩) م.س، ص: ١٦١.

(٦٠) م.س، ص: ١٦٢.

(٦١) م.س، ص: ١٦٤.

(٦٢) م.س، ص: ١٨٢-١٨٣.

(٦٣) م.س، ص: ١٧٩.

(٦٤) م.س، ص: ١٨٩.

(٦٥) م.س، ص: ١٩٠.

(٦٦) وا إسلاماه، ص: ١٩٠.

(٦٧) م.س، ص: ١٦٩، و١٧٨، و١٨٠، و١٨٣...

(٦٨) م.س، ص: ١٧.

(٦٩) م.س، ص: ١٨.

(٧٠) م.س، ص: ١٧ و١٩...

(٧١) م.س، ص: ٨١.

(٧٢) م.س، ص: ١٢١.

(٧٣) وا إسلاماه، ص::١٧.

(٧٤) م.س، ص: ١٨.

(٧٥) م.س، ص: ١٢١.

(٧٦) م.س، ص: ١٢١.

(٧٧) تنظر القصة كاملة في «النجوم الزاهرة»، أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي. المؤسسة المصرية العامة، د.ط.ت، ٧/ ٨٥-٨٦.

(٧٨) وا إسلاماه، ص: ٦٥، وفي «البداية والنهاية»، ١٣/ ١٢٩ أنه«خربها، وشرد أهلها».

(٧٩) م.س، ص: ٧٣.

(٨٠) م.س، ص: ٦٥.

(٨١) وا إسلاماه، ص: ٧٠، وينظر البداية والنهاية، ١٣/ ١٣١.

(٨٢) م.س، ص:٢٤٦.

(٨٣) م.س، ص: ٢٤٦.

(٨٤) م.س، ص: ٢٥٠.

(٨٥) لعبد الحكيم الزيدي دراسة عنوانها«عوامل النصر في رواية وا إسلاماه»، حصر فيها هذه العوامل في ثمانية، وهي: القائد الصالح، والعالم الصالح، والغني الصالح، والإعداد، والشورى، والصبر عند اللقاء، واللجوء إلى الله في كل حال، والدور الإيجابي للمرأة. ن. موقع رابطة أدباء الشام (http://www.odabasham.net).

(٨٦) شجرة الدر، جرجي زيدان. دار صادر، بيروت، ط ١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ص: ٤٩.

(٨٧) م.س، ص: ٦٨.

(٨٨) شجرة الدر، ص: ٢٠، و٣٧، و٣٩...

(٨٩) م.س، ص: ٢٩، و٤٧، و٥١، و٦٢، و٧٠، و١٤٧.

(٩٠) م.س، ص: ١١٩.

(٩١) م.س، ص: ٣١، و١١٧.

(٩٢) م.س، ص: ٧٩.

(٩٣) شجرة الدر، ص: ٧٩.

(٩٤) م.س، ص: ٣١، و٣٧، ٧٨، و٧٩، و٨٢، و٩٨، ٩٩، و١٠٢-١٠٥، و١٢٧، و١٣٣...ويقابل ذلك مثلا بما في «تاريخ الخلفاء» للسيوطي، ص: ٥١٧ و٥٢٣.

(٩٥) م.س، ص: ١٥٩.

(٩٦) بحثت عن «جلنار» أو «جهاد» أو «سلافة» أو «شوكار» في الكامل، والبداية والنهاية، والنجوم الزاهرة، وحسن المحاضرة، وتاريخ الخلفاء،...فلم أقف لهن على ذكر، وهو ما جعلني أعتبر وجودهن من تخيلات روائيينا.

(٩٧) سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٩، ١٤١٣هـ، ٢٣/٢٠٠.

(٩٨) البداية والنهاية، ١٣/٢٢٥.

(٩٩) النجوم الزاهرة، ٧/٨٤.

(١٠٠) م.س، ٧/٨٨.

موقع الأديب
علي أحمد باكثير
www.bakatheer.com

(التوظيف الفكري والفني للشخصية الثانوية في روايات علي باكثير[1] التاريخية)

د. محمد بن يحيى أبو ملحة - السعودية

يحسُن - في مبتدأ هذا البحث - أن أورد تعريفًا موجزًا للرواية التاريخية؛ وممّا قيل في تعريفها: أنها "سرد قصصي يدور حول حوادث تاريخية، ... وفيه محاولة لإحياء فترة تاريخية بأشخاص حقيقيين أو خياليين أو بهما معًا"[2]. وهنا تكمن إمكاناتٌ كبيرة يستطيع الكاتب استثمارها، وتكمن - كذلك - صعوباتٌ كثيرة على الكاتب أن يجتهد في حسن التعامل معها، فمن تلك الإمكانات: أن جعل الرواية في إطار تاريخي يمدّ الكاتب بكثير من الأحداث والشخصيات الجاهزة.

والرواية التاريخية توفّر للكاتب غطاءً آمنًا يتنقّل من خلاله، وينتقد الأوضاع السائدة، ويقدّم الحلول الناجعة دون أن يُضطرّ إلى النقد الصريح للقوى القائمة في عصره.

وفي مقابل هذه الإمكانات نجد أن الكاتب للرواية التاريخية تواجهه بعض الصعوبات: فحريته محدودة في بناء الأحداث؛ فليس له أن يغيّر في بنية الأحداث التاريخية، أو أن يخالف منطق الشخصيات التاريخية.

وفي ضوء تلك الإمكانات والصعوبات كتب (باكثير) رواياته التاريخية، بل إن معظم روايات (باكثير) روايات تاريخية (مجموع رواياته ستٍّ، خمسٌ

(١) انظر: د. محمد أبو بكر حميد، مقال (صفحات مجهولة: علي أحمد باكثير)، مجلة الأدب الإسلامي، مج ٨، العدد ٢٩ ، ١٤٢٢ هـ.

(٢) مجدي وهبة، وكامل المهندس ، (معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب)، مكتبة لبنان، بيروت الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، ص ١٨٤ .